(٤)

كتابات نثرية للهمشري

جمعها حسن توفيق

٢٠١٢

obeikan.com

obeikan.com

جمال الريف المصري

فى الريف المصرى جمال لا حدود له تلمسه حياة خافقة فى كل ما اهتز به وخطر فيه، ودب عليه. ولكن كثيراً ما يصم ضجيج المدن أذن الإنسان أن تسمع نداء الريف، وهتافه به، وتعشى أنوارها الوهاجة الكاذبة عينيه فلا يكاد يرى الفجر الصادق المنبثق من آفاق هذا العالم الريفى القديم الذى لم تطمس جماله فتن المدنية وخدعها.

فى هذا الريف تنتشر الحياة المقدسة الأولى التى برأها الله سبحانه وصورها، ويجد الجمال الحق، والحب الطاهر، والإيمان الصادق، والقناعة الراضية التى تعز من كل مشهد بسيط، وتكبر من كل صغير قليل.

هنا الطبيعة ملك عادل بين أهل الريف أجمعين – لا فرق عنده بين عظيم أ حقير، وغنى أو فقير.

فالظل مشاع للجميع يستظلون به!!

والشمس مجمرة الطبيعة العظيمة التى يجتمع حولها الريفيون أجمعون لينعموا بالدفء والحرارة وهم كلهم فى ذلك سواء!!

والطيور، وهى جوقة الطبيعة، و«أوركستراها» الفخم لا تفضل قوماً على آخرين وإنما تشنف بألحانها آذان الريفيين أجمعين.

وغصون اللبلاب الغضة تألف هذه المنازل والأكواخ الوضيعة فتتشبث بها وتعرش فوقها وهى التى لو شاءت لاستكبرت على قصور المدن استكباراً ولضنت بجمالها عليها.

والشمس الفتانة تنسج بأنوالها الذهبية الساحرة من الندى المنشور على هذه الأكواخ الفقيرة والعرائش المتضعة خيوطاً كنسيج من الأحلام الزاهية تفيض فيه الأصباغ والألوان فيبدو كأنه حلية وشح بها قوس قزح هذه المنازل القروية ليرفع من قدرها ويعز من شأنها.

هذا موجود كله فى الريف!

وهذا قليل من جمال الريف!

وهذا القليل والكثير بعض من جمال الريف!

ومن مهام التعاون الكشف عن هذا الجمال المختبئ وراء المدن وإظهاره للناس حتى ينعموا به، ويكحلوا بنوره عيونهم، ويغنيهم عما يتوهمونه فى المدن من جمال ينقص الريف.

من مهّام التعاون أن يدحض مزاعم الأعيان المتغيبين ويهتف بهم «هذا هو جمال الريف الذى تكذبون به. فهل يفتح الله بينكم وبينه بالحق فتهرعون إليه وتزيدون من جماله وتعمرونه؟!»

والشعر وهو أحد رسل التعاون، والزهرة الجميلة النامية على شجرته المتفرعة العظيمة – مهمته أن ينوب عنه فى الإشادة بجمال هذا الريف والتسبيح بحمده، والغناء بمدحه وقد رأينا أن نأتى هنا على مثالين من الشعر الريفى أحدهما عربى والآخر غربى بحيث يكون قصدهما واحداً، ويرمى إلى الغاية الكبرى التى نرجوها وهي:

تعمير الريف، وتحبيب أهله فى الحياة فيه بمختلف مظاهرها من إنسان وحيوان ونبات فيتضافر الأعيان، والأهالى فى القيام به والعمل على إنهاضه، وبهذا تتحقق المدنية الريفية التى هى غاية التعاون فى البلاد الزراعية.

الطائر «السماك»

قصة طائر

على غصن دان، من شجرة صفصاف تنحنى فويق جدول صغير، جلس الطائر السماك ساكناً لا يتحرك، كانت الشمس تفيض بشرقتها المسجورة خلل الأغصان، فتضيء ظهر الطائر الأخضر المزراق اللامع، وتخفق فوق صدره الكستنائى العميق اللون، لقد كان الطائر جميلاً رائع الجمال.

وكان الربيع يخفق فى كل ما حوله، وتنثر أعراسه غير المرئية النحف أفنانين وأطرافاً، ولكن الطائر المزراق كان غارقاً فى أغوار سحيقة من الفكر، ذاهلاً عن كل ما حوله، عن الريح الهازجة فى ثنايا أفنان الصفصافة فوقه، وعن النهر المتألق الهدار ينساب تحته.

وكانت ترانيم الأطيار وخرير الجدول، يفيضان فى تيار واحد متوافق النغمة، متناسق الجرس، غير منقطع الينبوع، ولكن الطائر الأزرق ظل عاكفاً، ساهماً، ساكناً، لا يفوه بنأمة، ولا يسكب نغمة، تنفخ القوة فى لازمة هذه الجوقة التى ترتفع رويداً رويداً.

ولقد يكون النعاس ضرب على أذنيه، فقد ظل ساكناً جامداً وإن كانت عيناه مفتوحتين محملقتين إلى الماء وإلى الأظلال الخفاقة الراقصة عليه وفجأة بدأ يتحرك ويقف فقد رأى جرذاً برياً يسكن أعشاب الضفة يقترب من جحر تخرج منه زقزقة خافتة كأنها هى لأفراخ صغيرة من الطيور. ولمعت عينا الجرذ وسرت فيهما نشوة جامحة ولكنه كان هرماً أثقلت عبئه السنون. ورغم أنه لم ير الطائر السماك الجاثم فويق الغصن فإنه كان يعتقد أن أم هذه الأفراخ لابد وأن تكون على مقربة منها ترعاها بشكتها وتحميها وأن مجهوده سوف لا يظفر بنصيب. لقد كان الجرذ البرى يعرف تماماً أن «للسماك» منقاراً ذرباً قوياً وأن صديقاً له «أى للجرذ» قد فقد بصره أن طعنه سماك حانق غاضب بمنقاره.

ولبث الجرذ غير بعيد يدنى من الجحر ويشم التراب، والسماك يصوب نحوه

نظرات قادحة بالشرر. ولكن الجرذ شاء، بعد لأى أن يلوى عما كان اعتزم وأن يبحث عن فريسة تكون أسهل منالاً فانطلق فى الماء وأخذ ريش «السماك» يهبط رويداً رويداً حتى عاد إلى طبيعته.

وعلى الأثر كان سرب من السمك يشق طريقه فى الماء وهذا ما كان الطائر يتلهف إليه وينتظره.

وفى أسرع من عقيق البرق رؤيت خطفة من النور الأزرق تنطلق كالسهم، فتغطس فى الماء، فتملأ أفقها المحدود رشاشاً يمتد سقاطه حتى الغصن الذى جلس عليه السماك فى مجثمه وفى عرض منقاره جسم صغير فضي، لم يستغرق هذا من الطائر غمضة عين حتى حمل الفريسة إلى فراخه زغب الحواصل.

وعاد ثانية وثالثة ورابعة يكر مفاجئاً السرب ثم ينطلق وفى عرض منقاره هذا الجسم الصغير الفضى يطعمه لفراخه.

وفى المرة الخامسة ابتلع فريسته فاختفت فى جوفه وسدت جوع حوبائه.

وكان مأوى طائرنا السماك فى شكل فقير متواضع كان فى بداءة عهده جحر جرذ برى ثم هجره وآوى إليه الطائر بعد أن كنفه بعظام السمك وأشلائه. أما فراخه فكانت تحتل غرفة صغيرة فى نهاية السرب الضيق أى على مبعدة قدمين من المدخل.

ومرت الأيام سراعاً، وكانت كلها أيام عمل وجد ومثابرة للطائر الذى كانت حالته لا تنبئ عن ذلك لفرط هدوئه واستقراره ووقار هيئته.

لقد كان الرائى إليه وهو جاثم على الغصين من شجرة الصفصاف الكهلة فى غيهب الشفق يظن أنه ساهم شارد النظر يديم نظراً حالماً فى خياله المنعكس فى الماء. ومن وقت إلى آخر يقوم بهزة يضطرب فيها رأسه ويمتد إلى الأمام ثم يعود إلى حالته من السكون.

وفى ذات مساء كان الطائر جاثماً كعادته فى مكانه من الدوحة، كان نور الشمس الغاربة يصب وهجاً فى الماء ريخمر الغاب والأشجار والأعشاب بملاءات ذهبية ساحرة هى من صنع السماء أشبه ما تكون!

وفى هذه اللحظة الهادئة الساكنة، التى لا تتنفس فيها نسمة، ولا تهمس نأمه ولا ترف نغمة، مزق الصمت صراخ حاد عميق سريع قادم من ناحية العش أذعر

الطائر الحالم وأثار الخوف فى صميم قلبه.

وأدار نظراً حائراً حوله يبحث عن مصدر الصوت وأخيراً رأى عينين براقتين تشعان فى دكنة المساء.

ترى ماذا يكون هذا العدو ذو الصراخ المرعب والعينين المشتعلتين؟

وخرج أخيراً ابن عرس من الأعشاب وتقدم من العش.

لقد كان شجاعاً.. شجاعاً قوياً. وقد وهبته الطبيعة الأسنان الحادة والمخالف المسنونة، والجسم اللدن السريع.

ولم يكن يعرف الخوف أو يعرف الخوف نفسه إليه السبيل ولهذا تقدم من باب السرب الضيق يشم بأنفه ولكنه لم يلبث أن أحس رؤاحة من الهواء فوق وجهه، وصرخة داوية فى أذنه الحساسة، ومنقاراً صلباً رفيعاً يلتمس عينيه.

لم يتريث الطائر فى مهاجمة هذا العدو المخيف، ولم يقف مفكراً مقدراً الفرق بين قوته المحدودة وضآلة جسمه وبين قوة هذا العدو وكبر حجمه، وأخذ يكر مهاجماً ابن عرس وارتفع صراخه فى الجو فأقبلت أسراب الطير تخف لنجدته سراعاً فلم يجد ابن عرس إلا الفرار من هذا الطائر الغريب الذى لا يقوى على التغلب عليه.

ولم يعد الطائر إلى عشه إلا بعد أن أرخى الظلام ضفائره على عيون النهار، وانبثق القمر، وطلعت النجوم.

وكان صباحاً سعيداً فى اليوم الثانى حين خرج الطائر المزراق تتبعه فراخه على شجرة الصفصاف. وقد سرت فى الهواء روح عطرية ورفعت أزهار الشط هامها إلى السماء الزرقاء كأنها مجامر خيالية.

وأدارت الفراخ نظراتها حولها حين رأت العالم الغريب لها لأول مرة ولم تلبث هذه الحيرة أن تلاشت إذ أحست بالطوى يمزق أمعاءها فراحت تزقزق.

وفهم الطائر الكبير حاجة أولاده إلى الطعام فراح يصوب إلى الماء نظره ولم يلبث أن خف كالبرق إلى الجدول وغطس فى الماء وأعمل منقاره فى سمكة كبيرة فنفذ المنقار خطأ بين عينيها.

وحاول الطائر الصعود بالسمكة فلم يقدر. وظل منقاره معلقاً بها، وزاد ثقله ولم يلبث أن غار مع السمكة إلى القاع.

وكان آخر ما سمعه زقزقة صغاره تنشده لحن الموت!!

ملاحظات فى المرور

موظفو التعاون والمجتمعات :

موظف التعاون هو أكثر موظفى الحكومة اتصالاً بالأهالى اتصالاً مباشراً وأكثرهم معرفة بحاجاتهم ومعاطفة على شئونهم ولذلك وجب عليه أن يكون على صلة دائمة بالهيئة الحاكمة فى المركز أو فى المدينة التى يقيم فيها ويتعرف على الكثيرين ممن تربطهم والريف شئون وأشغال وأنا أعتقد أن السبيل الوحيد إلى ذلك هو بالاشتراك فى الأندية الاجتماعية والرياضية التى تنشأ فى المركز أو فى المدينة والتى يؤمها كثيرون من الموظفين وغير الموظفين من الأهالى والأعيان.

فى هذه الأندية يقع التعارف بين حضرة موظف التعاون وبين رجال الحكومة الآخرين المقيمين فى المدينة أو المركز ويستطيع بواسطة هذه الصداقة أن يقضى كثيراً من مطالب الريفيين الذين هم أعضاء فى الجمعيات التى يشرف عليها ويرعاها من غير أن يلقى صعوبة ما، ولما كان التعاون نظاماً اجتماعياً قبل كل شيء فوجب علينا نحن التعاونيين أن نتعرف الوسط الذى نعيش فيه ونختلط بالأقوام الذين تربطنا وإياهم شواغل اختلاطاً غير يسير.

أما فى الأندية الرياضية فإننى أجد لزاماً على موظفى التعاون أن يشتركوا فيها لأن فيها ترويحاً لنفوسهم من عناء العمل، وتقوية لأجسادهم وأعصابهم ومجالدة لصبرهم وهذه كلها خلال يجب أن تتوفر فى موظفى التعاون.

ويسرنى أن أقول إننى قد شاهدت فى مديرية الشرقية هذه الروح الطيبة وهى روح الاشتراك فى الأندية – وقد سَرَتْ فى نفوس موظفى التعاون وأثمرت ثمرات طيبة وإنى لأرجو أن يقتدى موظفو التفاتيش الأخرى وينهجوا نهج موظفى التعاون بالشرقية.

حلاق .. طبيب!

كثيراً ما يمارس مهنة الطب فى أريافنا المصرية قوم جهلاء هم أبعد ما يكون عن الطب والتطبيب. وكثيراً ما تذهب أرواح الفلاحين ضحايا جهل هؤلاء الحلاقين

المطبيين.

ولقد حدث أن زرت فى زورتى الأخيرة جمعية تعاونية ولما اكتمل عدد أعضائها تذكرت أحد الأعضاء وكنت قد تعرفت إليه فى زيارة قبل هذه فسألت عنه فقيل لى إنه مريض وإنه قعيد المنزل فلما سألت عن سر مرضه لم أظفر بجواب شاف ولهذا اعتزمت أن أزور الرجل فى منزله. وأدليت برغبتى هذه إلى أحد الحاضرين فقادنى إلى حيث يقيم المريض ولما دخلت عليه غرفته المظلمة العميقة الحلوكة فى رابعة النهار أحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى ولم أستطع أن أفلت من فمى تنهدة عميقة.

ودخلت هذا الغار أو إن شئت فسمه الجب الذى هو غرفة والتى يقدر أن يرقد فيها مريض هو أحوج ما يكون إلى حرارة شمس وإلى هواء نقى وإلى مناظر طبيعية بهجة تفيض حيوية وتنسيه وحشة الظلام والوحدة الموت!

وبعد جهد جاهد تعودت عينى هذا الظلام واختلط نورها بجو الغرفة واستطعت أن أرى السرير وأن أرى هيكلاً لم أستطع أن أتبينه لولا حركة لمحتها فوق السرير ولولا صوتاً خافتاً مبحوحاً صادراً من هذه الناحية.

تقدمت نحو الرجل وأنا ساهم البال مذهول اللب. أهكذا يتحول هذا الجسم القوى العضلات، الممتلئ بالحياة والشخصية القوية الجبارة إلى بقايا عظام وإلى آهة خافتة؟

وسألت الرجل عن مرضه فأخبرنى أن ذلك يرجع إلى عام فائت فقد ذهب إلى حلاق القرية وسأله أن يفتح دملاً له فى فخذه فما كان من هذا الحلاق إلا أن أعمل فى جسم هذا الفلاح مبضعه – وما كان هذا المبضع غير مقص – فتسمم الجرح وكاد يودى بصاحبه لولا عناية الرحمن.

ولكن ترى هل شفى الرجل؟ كلا. لقد أصيب بداء ملح يشف روحه ويضنى جسده.

فهل توقف الحكومة أمثال هؤلاء السفلة المجرمين – وأقصد بهم هؤلاء الحلاقين الذين يمارسون مهنة الطب – أقول، هل توقفهم الحكومة عند حد حتى ينجو الريف المصرى من أذاهم ومن أخطارهم؟

المعابر القروية ووجوب إصلاحها :

وأقصد بالمعابر القروية هذه الطرق الطويلة الضيقة، المستقيمة الملتوية، المرتفعة المنخفضة، التى تتخلل الحقول إلى القرى المصرية المتناثرة فى أنحاء الوادي.

تعتبر هذه المعابر الطرق الوحيدة التى تركبها قوافل المدينة من المركز أو المدينة إلى القرية وإننا لنتساءل هنا ترى هل تصلح هذه المعابر لسير هذه القوافل فيها؟

الجواب على ذلك مفهوم هو لا.

إن كثيراً من هذه المعابر – إن لم يكن معظمها – لا يصلح مطلقاً لسير المركبات فيها ناهيك عن سير السيارات ولذلك يجد كثير من الملاك والأعيان وكبار الموظفين صعوبة كبيرة فى زيارة هذه القرى.

فمن المسئول عن إصلاح هذه الطرق؟ أهى الحكومة أم هم الريفيون أنفسهم؟

إن على الحكومة واجباً وعلى الريفيين أيضاً واجب، على الحكومة أن تسعى إلى إصلاح هذه الطرق بكل الوسائل وعلى الريفيين أن يحافظوا على هذه الطرق بعد إصلاحها فلا يجورون على ترابها – كما هى العادة المتبعة فى الريف – ولا يتركون ماء الرى يغطى عليها فتتحول إلى منزلق وإنما يجب عليهم أن يساعدوا الحكومة مساعدة جدية فى إصلاح هذه الطرق والمحافظة عليها.

الأدب الديمقراطى والتعاون يتخلصان من الرأسمالية

للأستاذ الهمشري. المحرر بمجلة التعاون

الأدب والحياة :

ما هو الشيء الذى يجعل شعباً من الشعوب أو أمة من الأمم خالدة الأثر، عريقة المجد بين الأمم الأخرى أو ما هى الأشياء التى تفخر بها أمة وتتيه على أترابها؟

يجيب بعض الناس على هذا فيقولون إنه اتساع المملكة أو ثروتها هما اللذان يجعلانها عظيمة ولكن هذا محض الخطأ.

ويجيب بعض أناس آخرين على هذا قائلين إن مركز الأمة بالنسبة لغيرها أو كثرة الموانئ والمرافئ هو سر نجاحها. ولكن رأى هؤلاء أيضاً لا يدخل فى دائرة الصواب. ليكن لأمة كل هذه المزايا ولكن إن لم يكن لديها رجال يفهمون هذه المزايا ويستخدمونها فى الطريق السوى وفى الغرض الأسمى فإنها لن تكون عظيمة العظمة الحقيقية. إذن يمكننا أن نجيب على سؤالنا الأول بما يأتي:

إن الأمة تعتمد فى عظمتها أو فخامتها على الرجال والنساء الذين ينسبون إليها وأن الأشياء التى ينشئها هؤلاء الناس والطريق الذى يتخذونه لإنجاز هذه الأشياء والآثار التى تجعلها بين أحدوثة جليلة بين الأمم. فكثير من هؤلاء الناس يقومون بأعمال خالدة كبناء الطرق والكبارى والمساجد والكنائس الجميلة والمعابد إلى غير ذلك وقد تبدوا هذه الأشياء فى نظر بعض الناس أقل من المظاهر الطبيعية الأولى التى ذكرتها. ولكن هذه الأشياء تعلم الناس كيف يفكرون وكيف يقولون الحق. وحينما تمتلك أمة من الأمم أياً من هذه المفاخر التى ترثها عن أبنائها السابقين فإنها ستعتز بهذا التراث العريق الخالد وتحافظ عليه جهد طاقتها لسببين:

١) لأن هذه الآثار جميلة فى ذاتها.

٢) لأنها أنشئت بتكريس الجهود لها وبنشاط أبنائها العظيم وسعيها المتواصل إلى إنجازها. ولهذا فهى ذكريات خالدة لأرواحهم الخالدة التى تحرص على ألا تدع

النسيان والموت يمتدان إليها بعد أن يموت أولئك الأبطال بنوها.

فإذا ما زار أحد الأجانب اليوم مصر مثلاً فإنه لن تروعه هذه الصخور والموانئ الممتدة على ساحل البحر الأبيض. لن تروعه الإسكندرية أو القاهرة بقدر ما تروعه الأهرامات الجميلة والمعابد الهائلة، إنه سيقف حيالها قائلاً ومحدثاً نفسه:

ما أعظم الفن فى هذا البناء..

وما أجمل أجمل التصميم..

وإذا ما دخلها ورأى النقوش والتماثيل قال وقد زاد ابنهاراً:

لله در هؤلاء الفنانين ما أنضج فكرهم وأوسع أفق حياتهم أى فرح روحى كان يشيع فى نفوس هؤلاء المثالين الذين أتقنوا هذه التماثيل والصور والنقوش؟ أى شعر وأى فلسفة وأى نشاط؟ أى لطف وسمو نفسي.

إن هذا الأجنبى يمتدح العامل حينما يعجب بعمله وعند امتداح هذا العامل يمتدح الشعب الذى نشأ عنه هذا الذهن العبقري.

ولكن إذا فرض وكان الشعب مهملاً مستهتراً كثيراً بما خلفه السلف له من تراث فإن هذا الشعب لا يحفظ هذه الآثار وإنما يتركها للعم فإذا ما أتى جيل جديد رأى أنه قد سرق منه إرثاً كان يعتبره إرثاً مجيداً خلفه له أجداده الأقدمون والكثير منهم يقضون سراة حياتهم يبحثون عن هذا التراث المجيد عن قصد الجمال التى لم يقصدها الفناء والتى فازت بالبقاء.

فإذا ما ظهر بها راعهم الجمال المدفون تحت التراب والخلود الذى نسج عليه الإهمال نسيجاً كثيفاً ورأوا أرواح أجدادهم القدامى تطل عليهم وتحدثهم حديث القرون.

الأدب والحياة :

وبعض هؤلاء الأجداد الأجلاء يتركون رسالتهم فى ألفاظ تشيع فيها الأنوار والظلال والحركات والسكنات والآمال والآلام وكل ما كان يكتنيهم أثناء حياتهم وهذه الرسالة إنما تحدث هؤلاء الأبناء حديثاً قوياً خالداً لا ينقطع.

هذه الرسالة هى الأدب، وقد تكون شعرية أو نثرية وهى مهمة شاقة لا يقوم بأدائها إلا أفراد قلائل ممن أوتوا الإلهام وهبط عليهم وحى خاص.

وإنك لتقرأ هذا الحديث الخالد هذا الحديث الذى ترويه القرون وكان كل لفظ فيه مخزن الكنوز، أو قارورة العجائب ففى مخزن الكنوز قد يجد الإنسان كثيراً من اللآلئ النفيسة الجذابة الجميلة. يجد عقوداً من الفريد وعناقيد من الجوهر وحبات من الزمرد والعقيق وتهاويل من الحلى والصور إلى غير ذلك. وفى «قارورة العجائب» تبهر العين لون الطيف السحرية والآفاق الخالية والأقواس القزحة التى تفسح أمام الخيال دنيا يضل فيها الخيال.

لكن كل هذه الكنوز والعجائب تعيش متفرقة متباينة، فاللآلئ تتباعد عن حبات الزمرد والألوان لا تكاد تنسجم مع بعضها لأنه لا يوجد بينها صلة أو آصرة ترعاها جميعاً. وإنك حين تقرأ تاريخ هذه العجائب لا تجد ما يفيدك عن الرجل الذى جمعها أو ضمها جميعاً لأول مرة ولا تجد ما يدلك على منشئها.

ولكن الأدب على العكس من ذلك فهو صورة من نفس صاحبه أوليس الأسلوب هو الرجل؟ إن الفكر كالبحر والحياة هى الشاطئ الذى يلقى إليه من لآلئ وأصداف وأشلاء وأحياء وما تحويه جعبته العظيمة من عجائب.

وهذه مهمة شاقة تكفل بها هؤلاء الآباء فلقد نقلوا إليها حضارات الماضى كله وترجموا لنا حياتهم ولم يقتصر بعض منهم على أن يكون الإرث الذى يخلفه للأبناء إرثاً قديماً وإنما سعى إلى المستقبل ففتح معالم تشق على الطيف وراد أقطاراً تفضى الجبال أن يتقصاها.

الإنسانية والأدب :

فالأديب هو نبى يترجم عن آمالها وآلامها، عن حقائقها وعن أحلامها وهو الذى يكشف الجمال أمام أعينها إذا عز الجمال، ويخلق من البلقع الجدب جنة فيحاء.

هو الذى يسعى إلى تحقيق المثل الأعلى فى الحياة بعد هدم الفاسد من النظم والأوضاع وإدماج الطبقات بعضها ببعض إدماجاً تاماً حتى تتحقق مبادئ الحرية والعدل والمساواة بينها.

الأدب الديمقراطى :

وعلى ذلك فمهمة الأديب أن يؤلف من أدبه وحدة اجتماعية بارزة، وهذا لا يتم إلا إذا كان أدبه أدباً ديمقراطياً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى. يجب ألا يعيش الأديب أرستقراطياً منعزلاً وإلا اقتصرت رسالته على ناحية واحدة من الحياة هى أبعد

ما تكون عنها. اقتصرت رسالته على سكان هامش الإنسانية وعلى الطوائف المتطرفة منها وعلى الملوك والنبلاء وأذواقهم وشهواتهم الطبقات الأخرى التى هى قلب الإنسانية ووجدانها الصادق. إن العنصر الأول الذى يكون فى الحياة هو الألم وإن أشهى الأغانى التى تعمل أفاعليها فى نفوسنا هى كما يقول الشاعر (شيلي) ما سألت وهى مكتئبة حزينة. وما السرور إلا عارض فى هذه الحياة ولهذا لن يعيش أدب هؤلاء الأرستقراطيين الملكيين أمثال كيلينج وماسفيلد فى الأدب الإنجليزى أو الأديب البرجوازى بول بورجيه فى الأدب الفرنسى أو شوقى شاعر الأمراء فى الأدب المصري. إن المدينة القادمة هى مدينة ديمقراطية وسوف يعيش هؤلاء الأرستقراطيون فيها لأنفسهم ولا عاش من ولد لنفسه فقط. إن الأديب الذى يعيش لنفسه هو كالرجل الرأسمالى الذى ينسى حقوق الناس ويفنيها فى شهواته.

الأرستقراطية فى الأدب معناها الأنانية والإثرة وتتحول أغراض الثقافة من خدمة عامة إلى مصلحة خاصة تنشد المنصب والثروة ولو على أنقاض البلاد.

ليحدثنا هؤلاء الأدباء العظماء عن حياة الفلاحين المساكين وعن العمال البائسين الذين يتعذبون دون أن يجدوا أدناً مصغية ترحم شكواهم.

ليحدثنا هؤلاء الأدباء العباقرة عن طرق الإصلاح متى قد فكروا فيها لإنقاذ هذه الطبقات مما تكابده من الألم.

ويل لهم لقد فتنتهم المدينة أيما فتنة فتاجروا بأدبهم وبعلمهم لكى يضمنوا لهم ثراء ومجداً يعيشون بهما فى رغد عيش وقبعوا فى بيوتهم لا يجاهرون بآرائهم أو يدلون بعقائدهم.

وإن الترفع والكبرياء وسائر غرائز الإثرة الشائعة فى الروح البيروقراطية العتيقة هى التى تحفر الهوة السحيقة بين هؤلاء الأدباء المتعجرفين وبين صغارهم المتواضعين الذين يمثلون الشعب وهى التى تؤخر حركات الإصلاح فى الريف بالنسبة للفلاح وفى المدن بالنسبة للعامل.

ولقد كان من جراء هذه الأرستقراطية الفكرية أن هاجر كثير من الأعيان إلى لندن ليكونوا على اتصال تام بهذه المظاهر الفاتنة ومن هنا نشأ كره الريف وبغض الحياة فيه فعطلت مصالحه وأهملت مزارعه وقلت محصولاته وضعف مستواه الفكري.

ولما كان التعاون يعمل على إرجاع هؤلاء الأعيان المتغيبين إلى قراهم حتى ينظموا الحياة فيها وحتى يرفعوا من حالتها الاجتماعية لتكون فى مستوى يتفق ومعيشتهم فيها وبذلك تنشأ المدنية الريفية التى هى غاية التعاون فى البلاد الزراعية.

ولما كان هذا لا يتم له إلا بعد التخلص من الرأسمالية شيئاً فشيئاً حتى تتوازن الطبقات وتتقارب من بعضها. رأيناه يشترك مع الفكر الديمقراطى فى ذلك لأن الأخير أيضاً يعمل على التخلص من الرأسمالية فى الفكر ويعمل على تقريب الطبقات بعضها من بعض.

إن شجرة الإنسانية العظيمة التى خرج منها فرع التعاون هى نفس الشجرة خرج منها فرع الأدب الديمقراطي.

وبهذه المناسبة نسوق هذه القصة الطريفة التى حدثت بين أديبين أحدهما أديب أيرلندى عالمى اشتراكى النزعة يعمل على التخلص من الرأسمالية ويندد بالأرستقراطية وهو يعد أرستقراطى يبدو الكبرياء فى كثير من تصرفاته وتبدو الرأسمالية فى كثير من أفكاره وبين أديب مصرى ديمقراطى النزعة فى أقواله وأعماله.

الأديب الأول هو الكاتب الأيرلندى الشهير جورج برنارد شو، أما الأديب المصرى فإننا نحرص عن ذكر اسمه. عندما زار الكاتب برنارد شو مصر رأت فئة من الأدباء أن تدعوه إلى حفل يتم فيه التعارف بين أديب أيرلندا العظيم وبين أدباء مصر. وألفوا من بينهم وفداً ذهب إليه فى المنزل الذى يقيم به. ولما طلبوا مقابلته رفض استكباراً قائلاً: إن برنارد شو قد توفى فرجعوا من عنده وقد تولتهم الخيبة. وقد دفع هذا العمل الأحمق المتعسف أديباً فاضلاً أن يثأر لكرامته من هذا الأديب الذى يخفى شيطان أرستقراطيته فى مسوح هى أشبه بحلة المهرج فى الكرنفال.

ولقد نجح أديبنا العظيم المتواضع أن أرسل سهاماً رائشة فى إكليل من الأزهار والرياحين إلى أديب أيرلندا العظيم:

وها نحن نسوق كتابه إلى القراء فيه تذكرة.

إلى أديب عصره:

لما هبطتم أرض مصر رأى جماعة من أدبائها المفتونين بكم أن ينتهزوا فرصة للإعراب عما يكنون من إعجاب وإجلال لزعيم أدباء العصر فى حفلة يتشرفون فيها بحضوره فذهب إليكم رسولهم فى تواضع وإكبار يستجدى الحظوة بقبولكم الدعوة

ويلتمس الشرف بتنازلكم للحضور فكان جوابهم على هذا الرجاء الصادر عن أكرم العواطف وأنبلها رفضاً مفرغاً فى قالب من الجفاء يكاد يكون انتهاراً.

مضت هذه الحادثة التى ألمت نفوساً توجهت إليك نزيهة من كل غرض إلا التمسح بعزيز لديهم ثم جلستم بعد ذلك فى الفندق تتحدثون إلى جليس وتفضون إليه بالشكوى من لؤم الطبيعة الآدمية واستعصائها عن كل علاج حاولتم به إصلاحها بالرغم مما بذلتموه فى هذه السبيل من مجهودات شتى ولقد أشرتم فى عرض الحديث – تأييداً لنظريتكم – إلى المترفين الذين جلسوا فى شرفة الفندق يبعثرون المال فى جمحات هواهم ذات اليمين وذات اليسار بينما يجيئهم سائل يستجديهم فينتهرونه.

لست ألتمس المعاذير لأولئك المترفين ولا أنا بالذى يجرؤ على توجيه اللوم إلى برنارد شو تلك الشخصية العظيمة التى أقف بين يديها منكس الرأس خشوعاً وإجلالاً ولكن ألا يوافقنى سيدى وهو صاحب النظرات الدقيقة التى لا تفوتها أوجه الشبه – مهما خفيت – بين الأشياء أن هناك وجهاً للشبه بين موقف ذلك المترف ينتهر فى صلفه وكبريائه ذلك السائل المسكين وقد جاء فى ذله واستخذائه يستجديه شيئاً من ماله وبين موقف الأديب الكبير ينتهر فى خشونة وجفاء جماعة من الأدباء المتواضعين وقد جاءوا يستجدونه لحظة يشرق فيها عليهم بمجده وصيته وجاهه.

إنى أرى وجه الشبه دقيقاً بين إسراف ذلك المترف فى تبذير ثروته متابعة لأهوائه اعتماداً على أنه يغترف من معين لا ينضب وبين إسراف ذلك الأديب فيما يجرح سمعته مطلوعة لكبريائه اعتماداً على شهرة تسامى الشمس رفعة وتضاهى أشعتها اتساعاً.

هذه ملاطفة عنت لى أضعها بكل احترام تحت عين سيدى راجياً أن يغتفر لى جرأتى ويعذرنى إذا لم تذهب بى الشجاعة إلى البوح باسمي.